جدلية الإسلام

دراسة مقارنة مختصرة للكشف عن المنهج المعرفي الإسلامي
وصيغة التوازن بين المتناقضات

تأليف

الدكتور محمد شوقي الفنجري

وكيل مجلس الدولة المصري سابقًا
وأستاذ الاقتصاد الإسلامي

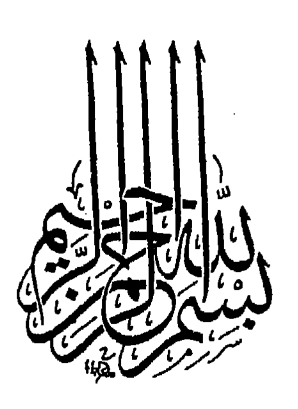
الناشر

دار ثقيف للنشر والتأليف رقم التسجيل :

ص.ب ١٥٩٠ الرياض ١١٤٤١

هاتف : ٤٧٦٥٤٢٢

الطبعة الأولــى
١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

قرآن كريـــم

«بسم الله الرحمن الرحيم»

(وجادلهم بالتي هي أحسن) ـــ النحل/ ١٢٥.

(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) الذاريات/ ٤٩.

(ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ـــ الأنبياء/ ٣٥.

(ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين
ونبلوا أخباركم) ـــ محمد/ ٣١.

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ـــ البقرة/ ٢٥١.

(وتلك الأيام نداولها بين الناس) ـــ آل عمران/ ١٤٠.

(إدفع بالتي هي أحسن) ـــ فصلت/ ٣٤.

(السماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان) ـــ الرحمن/ ٧.

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) الانشقاق/ ٦.

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاء، لتكونوا شهداء على الناس ويكون
الرسول عليكم شهيداً) ـــ الذاريات/ ٤٩.

«صدق الله العظيم»

إهـــداء

خمسة عشر عامًا إقامة متصلة، عشتها بالمملكة العربية السعودية، أستاذاً بالجامعة، وكاتبًا بالصحف، ومستشاراً قانونيًا بمختلف المواقع. وكانت فترة هي أخصب وأجمل سنوات العمر، تعاونًا وأخذًا وعطاءً. وشاهدت خلالها نهضة تاريخية، هي نموذج في التطبيق ومثل في النجاح؛ بفضل الله تعالى، ثم بحكمة أولياء الأمر بالأراضي المقدسة وطاعة مواطنيها وتعاونهم، وذلك التلاحم النادر والثقة المتبادلة بين الحكام والعلماء وأفراد الشعب السعودي. وهي في المحصلة ثمرة ذلك الإنتماء الوثيق والإعتزاز الواعي بالإسلام، والإعتصام بحبل الله تعالى، والحرص على تنقية النفوس وجمع الكلمة.

لذلك وهذا هو كتابي العاشر خلال فترة إقامتي بالأراضي المقدسة، أهديه إلى الشعب السعودي وقائد مسيرته الموفقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، أطال الله عمره في خدمة الإسلام والمسلمين وزاده توفيقًا.

وإذا كان لي أن أخص أحدًا بالذكر، فهم كل من أسعدني الحظ بالعمل معهم. وهم، والحمد لله تعالى، كثيرون جعلوا فترة إقامتي رغدًا ومحبة وإنتاجًا. وعلى رأسهم معالي الشيخ **حسن كتبي** الذي قدم لي ثلاثة كتب وأحاطني بمحبته في الله، ومعالي الدكتور **غازي القصيبي** الذي أنْعَمُ بأخوته، ومعالي الدكتور **عبدالرحمن آل الشيخ** الذي فُزْتُ بصداقته، ومعالي الشيخ **فيصل الحجيلان** ومعالي المهندس **محمود طيبه**

الَّذين أحمل لهما كل محبة وتقدير. وأذكر بالاعتزاز الأُخوة الأَجلاء معالي الدكتور منصور التركي، والدكتور أنور عبدالمجيد، والدكتور عبدالرحمن السويلم، والدكتور أحمد التويجري، والشيخ الدكتور عبدالله العجلان. وأحيي معالي الشيخ عبدالعزيز الرفاعي، ومعالي الشيخ عبدالوهاب عبدالواسع، ومعالي الشيخ محمد بن جبير، ومعالي الشيخ صالح الحصين. وأتذكر بالإمتنان الأخوة الأعزاء الأستاذ عبدالله هاشم شطا، والأستاذ عبدالرحمن العبد الكريم، والدكتور محمود بابللي، والشيخ عبدالوهاب الزيني.

ولا يسعني هنا إلا أن أشيد بالأخ الفاضل الأستاذ عبدالرحمن المعمر، صاحب دار ثقيف، والذي لم ألق مثله ناشراً صاحب مثل وصاحب رسالة، وفقه الله وأرضاه.

إنني إذ أبرح اليوم وطني الثاني بالأراضي المقدسة، عائدًا إلى مصر بهدف التفرغ الكلي للخدمة العامة حسبة وابتغاء وجه الله تعالى، أشعر بالإعتزاز والإمتنان للكثير ممن لم أذكرهم لضيق المكان؛ ولا أملك إلا أن أدعو للجميع بالتوفيق وأطيب التمنيات، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم المجيب.

الرياض في الخميس ٣ رجب ١٤٠٩هـ
٩ فبراير ١٩٨٩م

الفصل الأول

الفصل الأول
الإسلام والجدليـــة

نعالج هذا الفصل في ستة فروع على الوجه الآتي :

الفرع الأول : حول مصطلح الجدل والجدلية.

الفرع الثاني : حقيقة التناقض أو التضاد وحكمته.

الفرع الثالث : المنطق الشكلي (الأرسطى)
والمنطق الجدلي (الهيجلي).

الفرع الرابع : المنطق الإسلامي.

الفرع الخامس : بين الجدلية الوضعية وجدلية الإسلام.

الفرع السادس : قوام الفكر الإسلامي وجدليته الخاصة.

الفرع الأول
حول مصطلح الجدل والجدلية

١ ــ يراد بالجدل فن أو أسلوب الحوار لإظهار الحقيقة أو إجلاء الغامض، وهو ماعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن)[١] .

وعليه فإن الهدف من الجدل هو الكشف عن المصلحة الحقيقية أو إبراز سبيل الحق، وإلا كان مهاترة ومضيعة للوقت وسببًا للتباغض والتنافر، وهو ما ذمه القرآن الكريم بقوله تعالى: (وكان الإنسان أكثر شيء جدًلا)[٢] وقوله تعالى: (يجادلونك في الحق بعد ماتبين)[٣] .

٢ ــ ويراد بالجدلية DIALECTIQE فن أوأسلوب التعامل مع مختلف متناقضات الحياة، وما يترتب عليه أو ينشا عنه من أطروحات أو مستجدات أو معطيات جديدة تتطلب بدورها تعديلات أو إختيارات أو مواقف جديدة، وهكذا تستمر المتغيرات

(١) سورة النحل، الآية رقم ١٢٥.
(٢) سورة الكهف، الآية رقم ٥٤.
(٣) سورة الأنفال، الآية رقم ٦.

بهدف تحقيق التوازن كلما اختل، وصدق الله العظيم **(السماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان)**[1].

فقوام الحياة هو ظاهر المتناقضات، وسنتها هي الحركة الدائمة والتغيير المستمر، وسبحان الله الذي يغير ولايتغير، وكما يقال: دوام الحال من المحال. الأمر الذي يتطلب وعيًا في التعامل مع سنة المتناقضات وحقيقة المتغيرات، وأن نستعد بالتخطيط لها بحيث يكون التغيير إيجابيًا في صالحنا، وصدق الله العظيم **(إدفع بالتي هي أحسن)**[2]. وهذا هو البلاء أو الاختبار في الحياة الدنيا، وهو الفرق بين الأفراد النابهين أو الأمم المتقدمة التي تتحكم في مقدراتها، وبين الأفراد الغافلين أو الأمم المتخلفة التي تتحكم فيها الظروف وتلهو بها الأحداث.

٣ ــ والجدلية بهذا المعنى تصبح من أهم حقائق الوجود، حيث تساعد الإحاطة الرشيدة بها واستيعاب حقيقتها، إلى إعادة ترتيب العقل الإنساني على أساس سليم، فضلاً عن الإسراع إلى خلق الوعي اللازم لمجابهة مختلف تحديات الحياة ومتناقضاتها، وبالتالي الوصول بمتغيراتها إلى حالة الاعتدال والتوازن المنشود.

---

(١) سورة الرحمن، الآيات ٧ و٨ و٩.

(٢) سورة فصلت، الآية رقم ٣٤.

وتستهدف جدلية الإسلام إستيعاب متناقضات الحياة والتحكم في متغيراتها بالدفع بالتي هي أحسن، تحقيقـًا للتوازن المتحرك المحسوب، والذي بدونه لا تستقيم حياة، وهو ماعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: (والوزن يومئذ الحق)[1] ، وقوله تعالي: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)[2] .

---

(١) سورة الأعراف، الآية رقم ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ١٤٣.

الفرع الثاني
حقيقة التناقض أو التضاد وحكمته

١ ــ الثابت أن كل ما في الوجود يقوم على ثنائية التركيب الذي يبدو فيه التناقض أو التضاد، وكثيرًا ماتدق التفرقة أو تتداخل أو تختلط الحدود. فهناك الحق والباطل وما بينهما، وهناك الخير والشر ومابينهما، وهناك العلم والجهل وما بينهما، وهناك التقدم والتخلف وما بينهما..... الخ.

وفي مجال هذه الثنائية أو الزوجية التي هي سمة الحياة، هناك القول والعمل، وهناك الفكر والسلوك، وهناك العقل والعاطفة، وهناك الجلي والخفي، وهناك المادى واللامادى، وهناك عالم الشهادة وعالم الغيب.... وهناك النهار والليل، وهناك الرجل والمرأة، وهناك الجبر والاختيار، وهناك الحياة والموت، وهناك البناء والهدم، وهناك الضروري والكمالي... وهناك المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، وهناك الملكية الفردية والملكية الجماعية، وهناك الحاجات المادية والحاجات الروحية، وهناك الدنيا والآخرة... وهناك السالب والموجب، وهناك الثابت والمتغير، وهناك القديم والجديد، وهناك الوحدة والتنوع، وهناك الأصالة والمعاصرة... الخ

من ثنائية التركيب أو الزوجية التي يبدو فيها التناقض أو التضاد، مما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: **(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)**[1]، وقوله تعالي: **(وأنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى)**[2]، وقوله تعالى: **(وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)**[3].

٢ ــ وإن هذه المتناقضات في مختلف صورها وتعدد أشكالها، هي حقيقة الكون والحياة، أوجدها الله سبحانه وتعالى لتكون دوافع أو دينامو الحركة والوجود، وهي في ذات الوقت أساس ابتلاء الإنسان واختباره.

وإن أسلوب كل منا سواء كأفراد أم جماعات أم دول، في مواجهة أو معالجة هذه المتناقضات، وماتطرحه من متغيرات أو مستجدات، هو الذي يحدد اتجاهاتنا وسلوكنا، وبالتالي نجاحنا وسعادتنا أو إخفاقنا وشقاءنا. ذلك أن هذه الثنائية أو الزوجية، إذا أسيء تقديرها وتوجيهها كانت أداة للتنافر والصراع والشقاء، وإذا أحسن تقديرها وتوظيفها كانت أداة للتعارف والتكامل والسعادة،

---

(١) سورة الذاريات، الآية رقم ٤٩.

إن الحقيقة المذهلة التي تنطوي عليها هذه الآية وغيرها، كفيلة بأن تفتح العقول المغلقة وتلين العقول المتحجرة. بل حتى إذا قلنا أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة، فإن الذرة ذاتها مؤلفة من زوجين من الكهرباء أحدها سالب والآخر موجب.

(٢) سورة طه، الآية رقم ٥٣.

(٣) سورة النجم، الآية رقم ٤٥.

وصدق الله العظيم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1].

٣ ــ ونخلص مما تقدم أن ثنائية التركيب وواقع المتناقضات، وحقيقة المتغيرات واستمرارية المستجدات، هي سر الحياة ومحرك الوجود ومحدث التاريخ، وهي التي تدفع مسيرة البشر، وتحدد مختلف ملامح حياتنا الدنيا، وهو ماعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)[2]، وقوله تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس)[3]. بل إنه لكي تستقيم حياة الإنسان ويعي وجوده، ولكي يعيش حقا دنياه وينعم بحياته ويحقق رسالته، بل لكي يهتدي إلى ربه ويدرك نعمه وأفضاله ويكون بحق عبدًا شكورًا متصلاً بالله تعالى (إنا هديناه السبيل، إما شاكرًا وإما كفورًا)[4]، لابد له من الشيء ونقيضه. فهو لن يتذوق السعادة مالم يعانِ الشقاء، ولن يشعر بالغنى والنعمة مالم يقاسِ الفقر والحرمان، ولن ينعم بالهدوء والراحة مالم يبذل العرق والجهد، ولن يعرف قيمة الصحة إلا بعد المرض، ولايشعر بلذة النجاح إلا بعد الفشل... الخ.

وإن واقع المتناقضات على النحو المتقدم، ليس فحسب في

---

(١) سورة الحجرات، الآية رقم ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥١.
(٣) سورة آل عمران، الآية رقم ١٤٠.
(٤) سورة الإنسان، الآية رقم ٣.

مختلف صور وأشكال الحياة مما له دلالته وحكمته، بل هو أيضًا في ذات كل فرد كوحدة مستقلة، حتى أنه يمكن وصف الإنسان بأنه (كائن مليء بالمتناقضات)؛ وهو ما أكده القرآن الكريم بقوله تعالى: **(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)** [1] .وإذ كشف القرآن الكريم عما يلقاه الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مختلف العوائق والمتناقضات بقوله تعالى: **(لقد خلقنا الإنسان في كبد)** [2] ، وقوله تعالى: **(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه)** [3] ؛ فإنه في ذات الوقت بَيَّنَ له طريق الخلاص والنجاة من هذه المكابدة والمكادحة التي هي حياته وقدره بقصد الاختبار والابتلاء **(ونبلوكم بالشر والخير فتنة)** [4] ، وذلك بقوله تعالى: **(قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)** [5] وقوله تعالى: **(إدفع بالتي هي أحسن)** [6] .

وعليه فإن الإنسان في هذا الوجود، مطالب بالإقرار والتسليم بل الترحيب بكافة صور المتناقضات سواء في ذاته أم في مختلف علاقاته الخارجية، وذلك باعتبار هذه المتناقضات هي سر الحياة، ودافعته إلى الحركة والنشاط، وهي أيضًا أساس اختباره وابتلائه. ثم إنه وهذا هو

---

(١) سورة الشمس، الآيتين رقمي ٧ و٨.

(٢) سورة البلد، الآية رقم ٤.

(٣) سورة الانشقاق، الآية رقم ٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية رقم ٣٥.

(٥) سورة الشمس، الآيتين رقمي ٩ و١٠.

(٦) سورة فصلت، الآية رقم ٣٤.

مفتاح ودلالة الجدلية الإسلامية على نحو ماسنبين، مطالب في حركته بنص القرآن الكريم، بتزكية نفسه والدفع بالتي هي أحسن، أي بالتهذيب والتعاون والتكامل لا بالفساد والتنافر والصراع، وذلك باعتبار هذه التزكية والتعاون والتكامل هو طوق نجاته وسبيله الوحيد لخلاصه وسعادته، وصدق الله العظيم (والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر)[1]. وقوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)[2] .

---

(١) سورة العصر.

(٢) سورة المائدة، الآية رقم ٢.

الفرع الثالث
المنطق الشكلي الارسطي
والمنطق الجدلي الهيجلي

١ ـ المنطق الشكلي (المجرد أو الأرسطي نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو)، هو منهج للبحث والتفكير يقوم على أساس أن كل ما في الوجود (مادة أو فكرًا) ثابت، فالشجرة هي الشجرة والبذرة هي البذرة.

وعليه فإن ما كان حقيقيا بالأمس هو حقيقي اليوم وسيظل حقيقيًا على الدوام. وبهذا النظر تعتبر الملكية الفردية أو الدولة أو الرق قديمًا... الخ حقائق ثابتة في ظل أي مجتمع وفي أي عصر.

٢ ـ والمنطق الجدلي (الديالكتيكي أو الهيجلي نسبة إلى الفيلسوف الألماني هيجل)، هو منهج للبحث والتفكير يقوم على أساس أن كل ما في الوجود (مادة أو فكرًا) في تغير مستمر، بسبب ما يحمله في محتواه من تناقض (نفي) يؤدي إلى إنشاء وضع جديد وهكذا، فالبذرة تحتوي على الشجرة والشجرة تحتوي على البذرة.

وعليه فإن ماكان حقيقيًا بالأمس أو صالحًا في ظروف معينة ليس كذلك اليوم أو الغد، ذلك أن كل ما في الوجود يحتوي على بذرة موته وأيضًا في الوقت ذاته على بذرة تجاوزه بحيث يكون موت كائن أو فكرة إيذانًا بمولد آخر جديد أرقى وأعلى من القديم. فكل مافي الوجود يمر بثلاث مراحل:

ـــ الوضع أو الإثبات THÈSE

ـــ النقيض أو النفي ANTITHÈSE

ـــ التركيب أو التأليف SYNTHÈSE

وهذا الأخير (التركيب أو التأليف) يعتبر وضعًا أو إثباتًا جديدًا يحتوى على مايناقضه أو ينفيه، وهكذا يستمر التطور الدائم من الأدنى إلى الأعلى حتى نصل إلى الوجود المطلق الذي يخلو من التناقض والذي يرادف عند هيجل فكرة الألوهية.

٣ ـــ ولقد أخذ ماركس عن هيجل فلسفته الجدلية، ولكنه قلبها من جدلية (مثالية) إلى جدلية (مادية). فالمادة في نظر ماركس هي الأصل في الوجود وهي السبب في كل موجود، والأفكار ليست إلا انعكاسًا للمادة، على عكس مايراه هيجل. ومن هنا سميت نظرية ماركس بالمادية الجدلية، وكان يقول إن جدلية هيجل أشبه بنظرية تقف على رأسها فجعلها هو تقف في الوضع الطبيعي على قدميها.

و يرى الماركسيون أن قوانين الجدل وأخصها قانون وحدة الأضداد وصراعها، وقانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات

كيفية، وقانون نفي النفي؛ هي التي تحكم حركة المادة، ومن ثم تحكم حركة العالم. وأن المنهج العلمي هو المادية الجدلية، وأن الماركسية لا تعنى إلا المنهج الجدلي، وأن كل ماعدا هذا المنهج إنما هو تطبيق له في مجالات الحياة والعلم المختلفة[1].

---

(١) انظر فيما تقدم هامش صفحة ٢٩ من كتابنا (ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية)، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م لناشره دار ثقيف للنشر والتأليف بالرياض. وقد اصدرت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط المنبثقة عن المؤتمر الإسلامي، ترجمة له باللغتين الانجليزية والفرنسية.

الفرع الرابع
المنطق الاسلامي

كان للإسلام منذ ظهوره من أربعة عشر قرنًا ونيف، منطقه الخاص، والذي كشف عنه وشرحه أئمة وعلماء أصول الفقه الإسلامي. ويتلخص هذا المنطق في الجمع بين الثبات والتطور.

لقد جاء الإسلام خاتم الأديان، رسالة عالمية للبشر كافة. واتفقت كلمة علماء المسلمين بأن كل ماورد في القرآن والسنة من أحكام سواء ماتعلق منها بالعبادات أم ما تعلق منها بالمعاملات، هي أحكام إلهية ملزمة للكافة، وهي غير قابلة للتغيير والتعديل، ومن ثم فهي صالحة لكل زمان ومكان.

٢ ــ وفي الوقت ذاته سجل علماء الإسلام بأن ما ورد في القرآن والسنة من أحكام تفصيلية ملزمة للكافة، إنما يتعلق بالعقيدة والأخلاق التي تشكل فكر ونفسية وسلوك المسلم على النحو المثالي المنشود. أما بشأن ماورد في المعاملات من أحكام ملزمة، فهو محدود للغاية، ولا يتضمن سوى أحكام عامة صالحة لكل زمان ومكان: كمبدأ الشورى والتزام العدل في المجال السياسي... وكتحريم الربا والاحتكار وكافة صور الاستغلال وأكل المال

بالباطل في المجال الاقتصادي مع ضمان حد الكفاية وحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع... وكالحرية والإخاء والمساواة في المجال الاجتماعي مع الالتزام بالحدود إلى جانب التعزير... الخ.

واستنتج فقهاء الشريعة وعلماء الإسلام من ذلك، أن هناك مجالاً واسعًا للاجتهاد في نطاق المعاملات، خاصة في كيفية تطبيق وإعمال هذه الأحكام العامة. وإن هذه التطبيقات تختلف حتمًا باختلاف الزمان والمكان، حتى رأينا الإمام الشافعي يفتي بمذهب معين في العراق فلما أتى إلى مصر ووجد ظروفًا وأعرافًا مغايرة أفتى بمذهب آخر مخالف [1] . وقد جرى على لسان فقهاء الإسلام قولهم: (تغير أحكام المعاملات بتغير الأزمنة والأمكنة) [2] .

ولكن هذا التغيير هو دائماً في حدود وإطار الأحكام العامة للمعاملات، حسبما وردت بالقرآن والسنة، دون أدنى تعارض أو خروج عليها. ومن ثم كان قولهم في اختلاف أو تعدد التطبيقات بأنه (خلاف زمان ومكان لاخلاف حجّة وبرهان) [3] ، وورد في

---

(١) التعبير المتعارف عليه هو اصطلاح «مذهب»، في حين أن الدقة العلمية تقضي التعبير عنه باصطلاح «تطبيق» أو «اجتهاد». ذلك لأن العقيدة أو المذهب هو الاصول الثابتة، واجتهادات الفقهاء ليست إلا تطبيقات تختلف باختلاف الزمان والمكان.

هذا فضلا عن أن اصطلاح التطبيق أو الاجتهاد يقضي على غلواء التشيع الذي يثيره اصطلاح المذهب.

(٢) انظر الإمام ابن القيم الجوزية، في كتابه اعلام الموقعين عن رب العالمين، فصل (تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة).

وكذا فضيلة الشيخ عبدالوهاب خلاف، في كتابه علم اصول الفقه الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٧.

(٣) المرجع السابق.

الحديث النبوي «اختلاف أمتي رحمة»[1]، وعبر عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أدق تعبير بقوله (إنه خلاف تنوع لاخلاف تضاد)[2].

٣ ــ ونخلص مما تقدم، أن الإسلام منذ البداية من أربعة عشر قرنًا ونيف، ودون أن يطلع على المنطق الأرسطى (منطق الثوابت)، وقبل أن ينشأ بقرون نقيضه وهو المنطق الهيجلي (منطق المتغيرات)، إنما قرر ابتداء مالم يتوصل إليه بعد الفكر البشرى عبر تاريخه الطويل وحتى اليوم، من منطق سليم هو (المنطق الإسلامي) الذي يقوم على أساس (الجمع بين الثبات والتطور). (الثبات) من حيث الأصول الإسلامية أو الأحكام الشرعية التي لاترتبط بمرحلة تاريخية معينة أو بتغير وسائل أو أشكال الإنتاج، (والتطور) من حيث كيفية إعمال هذه الأحكام الأصولية واختلاف تطبيقاتها باختلاف الزمان والمكان.

ومن هنا فإن الإسلام يرفض الفكر الوضعي الحديث القائل بالتطور في مجال العقائد والأخلاق، ويلفظه كلية فيما يذهب إليه من اختلاف القيم باختلاف الزمان والمكان. وبالتالي ينبذ الإسلام فلسفة (البراجماتية) التي تدين بها الحياة المعاصرة خاصة المجتمعات الأمريكية التي تجعل المنفعة هدفها الأساسى بصرف

(١) وفي رواية اخرى (اختلاف اصحابي لكم رحمة)، وقد أخرجه البيهقي والمقدسي وابن الحاجب والسيوطي وغيرهم، وقد استند إليه الحافظ بن حجر والحليمي وإمام الحرمين وقالوا (لو لم يختلفوا لم تكن رخصة).

(٢) انظر مجموعة فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة الرياض، الجزء السادس صفحة ٥٨، والجزء الثالث عشر صفحة ٣٤.

النظر عن المثل والقيم، ولا تفهم التقدم أو السعادة إلا بمعناها المادي المجرد غافلة عن البعد الروحي أو الديني. ذلك لأن الإنسان ليس مادة فحسب وإنما هو روح أيضًا، وأن هدفه الأخير هو الله تعالى إذ يؤكد واقع الإنسان أنه بدون الإحساس بالله تعالى وخشيته والاطمئنان إليه لا تستقيم له حياة، وصدق الله العظيم **(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)** (١)، وقوله تعالى: **(نسوا الله فأنساهم أنفسهم)** (٢)، وقوله تعالى: **(ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم)** (٣).

والإسلام إذ يؤكد ثبات الهدف والجوهر مما جاء به منذ أربعة عشر قرنًا ونيف كأصول الإيمان والعبادة، والأخلاق الحميدة والقيم السامية، ومبادىء الشورى والحرية والإخاء والمساواة وضمان حد الكفاية لكل فرد....الخ، نراه في مجال المعاملات والمتغيرات، على نحو ماسبق بيانه، يسلم باختلاف الأساليب وتعدد صور التطبيق. وهو بشهادة كافة المستشرقين ومختلف علماء الشرق والغرب، هو الذي أخرج العالم كله من صنم المنهج اليوناني المجرد ليهديهم إلى المنهج التجريبي بالنظر في الكون والتأمل في الكائنات ومعرفة أسرار الوجود، داعيًا إلى تحكيم العقل وتحريره من التبعية والتقليد والهوى والتزام البرهان والدليل. وصدق الله العظيم **(إن في خلق السموات**

---

(١) سورة طه، الآية رقم ١٢٤.

(٢) سورة الحشر، الآية رقم ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية رقم ١٠١.

والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون)[١] ، وقوله تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم، أفلا تبصرون)[٢] . بل ينذر القرآن الغافلين بقوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها، ولهم أعين لايبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون)[٣] ، وقوله تعالى: (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)[٤] . و ينعي القرآن من يتبعون الظن بقوله تعالى: (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لايغني من الحق شيئا)[٥] ، وقوله تعالى: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[٦] .

غير أن الإسلام على خلاف المنهج العلمي المعاصر، ينفرد بالتنبيه بأن العقل أو العلم غير كاف بالنسبة للغيب والروح والقيم، ولابد إلى جانب ذلك من الوحي أوالدين، وصدق الله العظيم (ألم، ذلك الكتاب

(١) سورة البقرة، الآية رقم ١٦٤.
(٢) سورة الذاريات، الآيتين رقمي ٢٠ و٢١.
(٣) سورة الأعراف، الآية رقم ١٧٩.
(٤) سورة الإسراء، الآية رقم ٧٢.
(٥) سورة النجم، الآية رقم ٢٨.
(٦) سورة البقرة، الآية رقم ١١١.

لاريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب)[1]. ومن ثم يقوم منهج المعرفة الإسلامية على ثنائية الحياة (عالم الشهادة وعالم الغيب) أو زوجية التركيب وأولها العقل والعلم لإدراك المحسوسات والمتغيرات، وثانيها القلب أو الدين لإدراك الغيبات والثوابت. ولايعرف الإسلام ذلك الإنفصام الذي توهمه الفكر الوضعي وشقى به، من أفكار (العلمانية) LAÏQISME من حيث قصر الحياة على المحسوسات وحصر الفكر في الماديات. وما صاحبه في الفكر الليبرالي من الفصل بين العلم والدين، وما استلزمه في الفكر الماركسي وغيره من إنكار الدين أو إخراجه من دائرة الحياة، بالرغم من الحقيقة التي نبه إليها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا بأن لكل من : الإيمان والغيب، والعلم التجريبي، مجاله ونطاقه وأن كلاً منها يكمل الآخر ولايغني أحدهما عن الآخر.

٤ ـــ وعليه فإن الإسلام في مجال المعاملات، وإن ارتبط منذ البدء بمبادىء معينة وأصول سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية... الخ محددة وملزمة للكافة في كل زمان ومكان، إلا إنه في مجال إعمال هذه المبادىء والأصول يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ليختار كل مجتمع إسلامي الأسلوب أو الصيغة التي يراها متفقة وصالحه حسب ظروفه المتغيرة.

ولقد سبق أن قلنا في كتابنا الأول من سلسلة الاقتصاد الإسلامي والمعنون (ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية)، أن هذه

---

(١) سورة البقرة الآيات رقم ١ و٢ و٣.

المسألة تعتبر مركز اختلاف رئيسي بين الاقتصاد الإسلامي وكافة الاقتصاديات الوضعية، خاصة الاقتصاد الماركسي الذي يقرر الصلة الحتمية بين تطور أدوات الإنتاج والنظام الاجتماعي وأنه من المستحيل بحسب زعم الماركسية أن يحتفظ نظام اجتماعي معين بوجوده على مر الزمن أو أن يصلح للحياة الإنسانية في مراحل متعددة. ومن ثم ترى الماركسية أن فكرة المساواة ليست إلا نتاج المجتمع الصناعي، وترى الرق أمرًا طبيعيًا في المجتمع الذي يعيش على الإنتاح اليدوي، الأمر الذي يرفضه كلية الإسلام. بل لقد تحدى الواقع الإسلامي الذي عاشته الإنسانية في عهدها المجيد، منطق كافة المذاهب الوضعية وحساباتها المادية، إذ لم يكن هذا الواقع الانقلابي الذي خلق أمة، وأقام حضارة، وعدل من سير التاريخ، وليد أسلوب جديد في الإنتاج أو تغير في أشكاله وقواه[1].

(١) انظر كتابنا ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية، مرجع سابق ص٣٥.

الفرع الخامس
بين الجدلية الوضعية وجدلية الاسلام

١ ـ إن حقيقة ثنائية التركيب، وظاهر التضاد أو التناقض، في مختلف صور وأشكال الحياة على نحو ماسبق بيانه، وما يستتبعه من تركيبات أو معطيات وتغيرات مستمرة تتطلب بدورها مواقف وحلولاً جديدة وهكذا، هو أمر كشف عنه الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ونيف بقوله تعالى: **(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)**[1] وقوله تعالى: **(وتلك الأيام نداولها بين الناس)**.[2] وأخيراً وبعد تخبط طويل، واختلاف كبير عبر التاريخ البشرى، لم يعد اليوم يختلف أو ينازع أحد في حقيقة ثنائية التركيب وواقع المتناقضات والمتغيرات.

ولقد أوضحنا من واقع نصوص القرآن، أن ذلك هو سنة الله في أرضه، والتي لن نجد لها تبديلاً، وذلك لحكمة بالغة قد لايدركها البعض وقد تدق على الخاصة، وهي تحقيق حركة الحياة وتجددها من خلال تدافع هذه الثنائية أو المتناقضات.

---

(١) سورة الذاريات، الآية رقم ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية رقم ١٤٠.

ولكن وهنا مجال إرادة الإنسان وابتلائه، والذي من أجله وباعتباره مستخلفا من الله في أرضه، سخر له سبحانه كل مافي السموات والأرض، يثور التساؤل الأبدى، كيف تكون مواجهة أو مجابهة أو معالجة الإنسان لمختلف متناقضات الحياة!!

٢ ـ لقد تصور الفكر الوضعي، بقصوره أو ضلاله، وعبر القرون وفي مختلف مراحل الإنسانية، وبكل أسف حتى اليوم، أن هذه المتناقضات هي للصراع والاقتتال. وعلى هذا الوجه أو ذاك الفهم الخاطىء، حسم القضية بضرورة ترجيح أحد طرفي التناقض بالاعتداد بأحدهما دون الآخر. فرأينا مثلاً في مجال التناقض الرئيسي، وهو التدافع بين الفرد والدولة أو بعبارة أخرى التدافع بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، نشأ المذهبان السائدان والمتصارعان عبر التاريخ بدرجات متفاوتة، ألا وهما المذهب الفردى (وما يتفرع عنه من نظم رأسمالية بمختلف صورها)، والمذهب الجماعي (وما يتفرع عنه من نظم اشتراكية بمختلف أشكالها).

(أ) فالمذهب الفردي، بتفاوت درجاته أو مختلف صوره ونظمه الليبرالية يجعل الفرد هدفه فيهتم بمصلحته أولا و يقدمه على المجتمع، ومن ثم يمنحه الحرية الكاملة في ممارسة نشاطه الاقتصادي وفي التملك. وإذا كان هذا المذهب الفردى بتطبيقاته المختلفة، قد حقق مزايا أهمها إطلاق الحافز الشخصي والمبادرة الفردية وبواعث الرقى، إلا أنه أدى إلى مساوىء أهمها أن أفراد المجتمع ليسوا على درجة واحدة من الكفاءة والذكاء أو القدرة مما أدى إلى سيطرة الأقوياء

واستئثار الأقلية بخيرات المجتمع، وبالتالي سوء توزيع الثروة والدخول وتفاقم ظاهرة التفاوت بين الطبقات التي هي جرثومة كل شر إذ تشعل نار البغضاء وتثير الفرقة والصراع وتمحق تماسك المجتمع.

(ب) أما المذهب الجماعي، بتفاوت درجاته أو مختلف صوره ونظمه الاشتراكية، فإنه على النقيض يجعل المجتمع هدفه فيهتم بمصلحته أولاً ويقدمه على الفرد، ومن ثم يحتم تدخل الدولة في كل نشاط ويمنع الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. وإذا كان هذا المذهب الجماعي بتطبيقاته المختلفة، قد حقق مزايا أهمها إشباع الحاجات العامة ورعاية مصلحة الأغلبية الكادحة ومعالجة سوء توزيع الثروة وتقريب أو إذابة الفوارق بين الطبقات، إلا أنه أدى إلى مساوىء أهمها إضعاف البواعث الشخصية والمبادرات الفردية فضلاً عن الضغوط المختلفة وتحكم البيروقراطية وسيادة الديكتاتورية والطغيان وانتفاء الشعور بالأمن وانعدام الحرية التي هي أساس كل إبداع.

٣ — وعيوب مختلف هذه المذاهب الوضعية، وما تفرع عنها من نظم رأسمالية أو اشتراكية متعددة، أدت جميعها إلى مساوىء ملموسة، مردها أنها تصورت التناقض القائم بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، أو بين الحاجات المادية والحاجات الروحية.. الخ، هو للصراع والاقتتال، فلابد من ترجيح أحد طرفي التناقض ونفي أو جحد الآخر.

وهي بذلك إنما ضلت السبيل وعميت عن حكمة الخالق، بأن هذه التناقضات في مختلف أشكالها وصورها، والتي هي دينامو ودوافع الحركة، هي للتعارف لا للتنافر وهي للتعاون لا للصراع، وليعطي كل منها ما افتقده الآخر ليحقق له التوازن والتكامل.

ومن هنا كان للإسلام منذ ظهوره من أربعة عشر قرنًا ونيف، اسلوب جدلي خاص، ذلك أنه يقر مختلف التناقضات الموجودة في الحياة: الثبات والتطور، مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، المصالح المادية والحاجات الروحية.. الخ. إلا أن نقطة الخلاف الأساسية بين الإسلام وكافة المذاهب ومختلف النظم الوضعية التي عرفتها الإنسانية منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، أن هذه المذاهب والنظم الوضعية أساءت فهم هذه التناقضات وتصورتها أنها للتصارع والاقتتال، بحيث يجب ترجيح إحداها على الأخرى بحسب هوى أو تقديرات أو اختيارات قادة كل جماعة أو أمة أودولة. بخلاف الأمر في الإسلام، فقد اعتبر منذ البدء أن هذه التناقضات هي كالسالب والموجب للتكامل والتعاون، بحيث يحرص على الإبقاء على هذه التناقضات والتوفيق بينها لا على جحد أو نفي إحداها لحساب الأخرى[١].

على أنه في بعض الحالات الخاصة والنادرة، قد يغلب الإسلام أحد طرفي التناقض على حساب الآخر، ولكن بصفة مؤقته وبقدر

---

(١) انظر كتابنا (مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي)، لناشره رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ضمن سلسلة كتاب (دعوة الحق)، عدد جمادي الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٤١.

الضرورة، وذلك لإعادة التوازن وتحقيق التعاون والتكامل الذي هو مبتغاه. فمثلاً في حالات المجاعة أو الحروب يرجح الإسلام المصلحة العامة باعتبارها حق الله الذي يعلو فوق كل الحقوق، إذ في أوقات الخطر ومن أجل بقاء أو حماية الجماعة تتضاءل أو تتلاشى كافة الحقوق أو الحريات الفردية. حتى إذا زال الظرف الاستثنائي وعادت الأمور إلى مجراها، كان الحل إسلاميًا بقدر ما يوفق بين المصلحتين الخاصة والعامة دون نفي أو إهدار إحداهما لحساب الأخرى[1].

(١) انظر كتابنا (ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية)، مرجع سابق ص٤٣ ومابعدها.

الفرع السادس
قوام الفكر الاسلامي وجدليته الخاصة

١ ـ فالفكر الإسلامي، على نحو مارأينا، وعلى خلاف كافة المذاهب والنظم الوضعية، يقوم على الالتقاء والتكامل بين القيم الثابتة والقيم المتغيرة. وبعبارة أخرى يقوم الفكر الإسلامي على أساس الجمع بين الثبات والتطور، الثبات من حيث المبادىء والأصول العامة، والتطور من حيث التطبيقات والفروع الخاصة، مؤكدًا بذلك حقيقة الإنسان بأنه ثابت الجوهر متغير الصورة أو أنه ثابت الهدف متغير الأساليب.

ولقد عبر عن المنهج الإسلامي في التوفيق والملاءمة بين المصالح المتضاربة بهدف التكامل والتوازن، القرآن الكريم بقوله تعالى: **(لا تَظلمون ولا تُظلمون)**[1] ، والحديث النبوي **«لاضَرر ولا ضِرار»**[2] . ولقد أعطانا الرسول عليه الصلاة والسلام، صورة بسيطة ولكنها عميقة المعنى والدلالة في التوفيق والملاءمة في جانب هام من جوانب تناقضات الحياة ألا وهي التعارض بين المصلحتين

(١) سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٩.
(٢) متفق عليه.

العامة والخاصة بقوله عليه السلام «**إن قومًا ركبوا سفينة، فاقتسموا وصار لكل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأسه، فقالوا له ماذا تصنع؟ قال هذا مكاني أصنع فيه ما أشاء، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا**»[1].

ومن هنا فليس في منطق الإسلام بجمعه بين المادة والروح، أو بين العقل والقلب، أو بين الدنيا والآخرة، أو بين عالم الشهادة وعالم الغيب... الخ، أي تناقض أو انفصام أو انشطارية. ولكنه تكامل وتوازن ومواءمة بين طبيعة الإنسان ذاته الذي يجمع بين الروح والمادة، أو طبيعة الحياة ذاتها التي تجمع بين الدنيا والآخرة، كما تجمع بين الثبات والتطور.

٢ ــ ومن هنا قامت الشريعة الإسلامية منذ البدء، على قواعد ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل، ولكنها متطورة في تطبيقاتها مرنة في أحكامها التفصيلية بحسب ظروف الزمان والمكان.

وهذه الصيغة الفريدة التي جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ونيف، لم تتمكن مختلف المذاهب والنظم الوضعية التوصل إليها إلا مؤخرًا، مؤكدة وجود عناصر في التشريع تتمتع بالدوام والأبدية مع عناصر أخرى تتصف بالتغيير والتطور، وهو ماعبر عنه البعض بقوله (إن أهم مايحتاج إليه التشريع اليوم، أن تصاغ له

(١) أخرجه البخاري والترمذي.

فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتصارعة حول ثبات عنصر وتغيير عنصر آخر).

٣ ــ وثمة نقطة هامة أكدها الإسلام منذ ظهوره من أربعة عشر قرنًا، وهو أنه إذا كان حقًا أن كافة أمور الحياة وكافة مظاهر الكون تتحرك في نطاق قانون الجدلية، أي في تغير مستمر قصد الوصول إلى الأفضل والأنسب، مارة بسلسلة من المتناقضات حيث أن كل مرحلة تناقض المرحلة السابقة عليها وتنفيها، وأنها ستواجه مرحلة أخرى مقبلة تتناقض معها وتنفيها أيضًا، وهكذا كلما اختل التوازن. فإنه من الحق أيضًا أن هذه الحركة وهذا التغيير المستمر لاينشأ وفقاً للإسلام من فراغ ولايتحرك وفق الهوى، وإنما ينبثق ويتحرك في إطار منهج سماوى قوامه التحرر والعبودية لله وحده، والمساواة والإخاء والشورى... الخ من الأصول الإلهية الثابتة حسبما وردت بنصوص القرآن والسنة.

ونصل من خلال ماتقدم إلى مسألة هامة بالغة الأهمية والخطورة، وهي أن تحرك أحداث الحياة ومتغيراتها بمقتضى الجدلية الإسلامية، لايكون اعتباطًا أو عشوائيا، وإنما هو تحرك منضبط محكوم بأصول إلهية بهدف التكامل السليم والتوازن الحقيقي.

وعليه فإنه إذا كان هناك قديم ذاهب وجديد آت، فإن هذا الجديد بمقتضي الجدلية الإسلامية لايولد من فراغ ولاينشأ كرد فعل أو حسب اختيارات أو أهواء الحاكمين كما هو الشأن في كافة المذاهب

والنظم الوضعية، وإنما هو محكوم بمبادىء الشريعة وأصولها حسبما وردت بنصوص القرآن والسنة، لايخرج عن إطارها ولايتجاوز حدودها. فهو في النهاية تحرك دائم محكوم ومنضبط، بقصد تحقيق التكامل أو التوازن والاعتدال الذي هو سمة الإسلام ومبتغاه، الأمر الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)[1] ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[2] ، وهو ما انتهى إليه وأجمع عليه مختلف الفلاسفة والمفكرين بتأكيدهم (أن خير الأمور أوسطها). واختيارات الوسط الذي تدعو إليه الجدلية الإسلامية، ليست وسطية حسابية، وإنما وسطية اجتماعية نسبية لا تعنى سوى الاعتدال والتكامل بين المتناقضات، وباعتبار أن الاعتدال والتوازن الذي هو سمة الإسلام وأسلوبه في كافة نواحي الحياة لايمكن أن يوضع في قالب جامد أو صيغة محددة، ولكنه أمر اعتباري يختلف باختلاف الزمان والمكان.

(١) سورة البقرة، الآية رقم ١٤٣.
(٢) مسند الإمام أحمد، تحقيق الشيخ شاكر، الجزء الخامس عشر، تحت رقم ٣٦٥٥.

الفصل الثاني

الفصل الثاني
جدلية الاسلام ومناهج المعرفة

نعالج هذا الفصل في ستة فروع على الوجه الآتي :ـ

الفرع الأول : المنهج اليوناني (منهج النظريات)، والمنهج التجريبي (منهج المحسوسات).

الفرع الثاني : المنطق الأرسطى (منطق الثوابت)، والمنهج الهيجلي (منطق المتغيرات).

الفرع الثالث : زوجية الأشياء وظاهرية التناقض.

الفرع الرابع : جدلية التكامل لا الصراع.

الفرع الخامس : جدلية المتغيرات المحكومة بالثوابت الإلهية.

الفرع السادس : أزمة الفكر الوضعي وسبيل النجاة.

الفرع الأول
المنهج اليوناني «منهج النظريات» والمنهج التجريبي «منهج المحسوسات»

١ ــ كان المنهج السائد قبل ظهور الإسلام، هو المنهج اليوناني المبني على الفروض والمسلمات، لا على المدركات الحسية والاستقراء. فهو منهج نظري فرضي يبدأ بالعموميات المرسلة ليصل إلى الجزئيات، ويكرر النتائج في المقدمات. وبسببه تجمد فكر اليونان، وباتباعه عارضت الكنسية التقدم العلمي.

بخلاف الأمر في الإسلام، فقد جاء القرآن بمنهج النظر في الكون والتأمل في الكائنات واستقراء المشاهدات وعلل الأشياء والبحث في الأرض والسماء واستعمال العقل للاعتبار، توصلاً إلى الإيمان والارتفاع بالنفس والسلوك والحياة إلى مستوى التقوى بدافع الخشية والرجاء في الله تعالى، حيث تتنادي آيات القرآن الكريم بمعنى **(تأملوا ظواهر الطبيعة وحقائق الكون، فستقودكم إلى الإيمان)** بمثل ماتتنادي بمعنى **(آمنوا فسيقودكم الإيمان إلى الحقائق والعمل**

الصالح)[1]. وصدق الله العظيم (واتقوا الله و يعلمكم الله)[2] وصدق الأثر النبوي (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم).

٢ ــ ولقد شهد كثير من علماء الغرب أن المنهج العلمي المعاصر (التجريبي) الذي نسب إلى المفكر الانجليزي فرانسيس بيكون (١٥٦١/١٦٢٦م) إنما أخذ عن علماء المسلمين، حيث انتقل المنهج الإسلامي إلى أوروبا من خلال الأندلس (أسبانيا) وصقلية (إيطاليا). ولكن هؤلاء جردوه من صيغته الربانية وأهدافه السامية، فكان هذا الاضطراب والتخبط الذي تعانيه الإنسانية، وكان ذلك القلق والصراع الذي يتجرع عالمنا المعاصر مرارته.

والحاصل أن الإسلام هو الذي أخرج العالم أجمع من صنم أو دائرة المنهج اليوناني النظري، ليهديه إلى المنهج العلمي التجريبي. وأقر الجميع بأن أبحاث المسلمين التجريبية في الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والجغرافيا... الخ، هي مصدر يقظة الغرب، حيث درست علوم المسلمين في الجامعات الأوروبية منذ القرن الثاني عشر الميلادي.

٣ ــ لقد حدد الإسلام موقفه من العقل فجعله مناط التكليف، وحرره من التقليد واتباع الظن ودعاه إلى التجريب

---

(١) أنظر مقالنا المطول المنشور بمجلة «الدارة» السعودية عدد رجب ١٤٠٤هـ/ مارس ١٩٨٤م، تعليقاً على كتاب المستشار الفقيه عبدالحليم الجندي والمعنون (القرآن والمنهج العلمي المعاصر)، طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٨٦م.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٢٨٢.

والبرهان. ولكن في الوقت ذاته قرر أن العقل وحده غير كاف، وأن المعرفة الإنسانية ليست مقصورة على معطيات الحواس، وأنه إلى جانب العلم الذي مصدره التجريب هناك أيضًا العلم الذي مصدره الوحي والدين.

ولقد آن الأوان ليدرك العالم أجمع، أنه لانجاة ولاخلاص له إلا بالعودة إلى المنهج المعرفي الإسلامي وذلك بجناحيه (الإيماني) (والتجريبي)، ولتصحيح مسار حضارة اليوم من (حضارة المادة والأشياء) إلى (حضارة الإنسان والاعتصام بالله).

الفرع الثاني
المنطق الارسطي «منطق الثوابت» والمنهج الهيجلي «منطق المتغيرات»

١ ــ على نحو ماسبق بيانه، يقوم المنطق الأرسطى الذي ساد العالم أحقابًا طويلة على أساس المبادىء والتصورات الثابتة، فما كان حقيقيًا بالأمس هو حقيقي اليوم وسيظل حقيقيًا على الدوام، فالدولة أو الملكية الفردية أو الرق... الخ هي حقائق ثابتة في كل مجتمع وفي أي عصر، وإن كل ما في الوجود (مادة أم فكرًا) ثابت: فالشجرة هي الشجرة، والبذرة هي البذرة. وعلى نقيض هذا المنطق الأرسطى (منطق الثوابت)، قام المنطق الهيجلي (منطق المتغيرات) الذي يسود عالم اليوم، بمعنى أن كل الوجود (مادة أم فكرًا) في تغير مستمر، فما كان حقيقيًا بالأمس أو صالحًا في ظروف معينة ليس كذلك اليوم أو الغد، ذلك أن كل مافي الوجود يحتوي على بذرة موته وأيضًا في الوقت ذاته على بذرة تجاوزه بحيث يكون موت كائن أو فكرة إيذانًا بمولد آخر جديد أرقى وأعلى من القديم، وهكذا يستمر التغيير والتطور الدائم.

٢ ــ ولقد أدى الأخذ بمنطق المتغيرات بإطلاقه، إلى القول

بالتطور والتغيير في العقيدة والأخلاق، وبالتالي اختلاف القيم والمثل باختلاف الزمان والمكان، بل التأكيد بأن القيم والأخلاق ليست لها قيمة ذاتية ولاهي ثابتة على وضع معين. ولقد أدى ذلك إلى شيوع فلسفات المنفعة والإلحاد والفوضى، ممثلة في (البراجماتية) و(الشيوعية) و(الوجودية) وغيرها مما يمثل تيارات الضلال واليأس والقلق، بعد أن قطعت صلة الإنسان بالله وأحالته إلى مجرد حيوان مادى لاهدف ولاضابط له سوى إشباع نزواته الزائفة وغرائزه البهيمية.

٣ ــ والإسلام منذ البداية من أربعة عشر قرنـًا ونيف، ودون أن يطلع على المنطلق الأرسطى (منطلق الثوابت)، وقبل أن ينشأ بقرون نقيضه وهو المنطق الهيجلي (منطق المتغيرات)، قرر إبتداءً مالم يتوصل إليه بعد الفكر البشري عبر تاريخه الطويل، ولم يتضح له حتى اليوم من منطق متكامل هو (المنطق الإسلامي) الذي يقوم على أساس الجمع بين الثبات والتطور. الثبات من حيث العقيدة الإيمانية والقيم الأخلاقية وأصول المعاملات وأحكامها العامة الصالحة لكل زمان ومكان، والتطور أو التغيير في مجال فقط كيفية إعمال أصول المعاملات وأحكامها العامة وبيان تفصيلاتها. وبالتالي اختلاف الأساليب والتطبيقات باختلاف الزمان والمكان، ولكن دون أدنى خروج أو تجاوز لأحكامها العامة.

والإسلام بذلك إنما يعالج ويحسم إشكالية كبيرة تتحدى الفكر الوضعي الحديث، وهو مأزق التيارات المتصارعة حول ثبات عنصر

وتغير عنصر آخر. فهناك ثوابت الإيمان بالله والأخلاق الحميدة ومبادىء الحرية والإخاء والمساواة والشورى وضمان حد الكفاية لكل إنسان.. الخ، ولكن هناك متغيرات في كيفية إعمال الثوابت بحيث تتعدد أو تتنوع تطبيقاتها بحسب ظروف كل زمان ومكان دون خروج أو تجاوز لها.

الفرع الثالث
زوجية الأشياء وظاهرية التناقض

لم يكن الإسلام فحسب، منذ أربعة عشر قرنًا ونيف، أول من نبه إلى توظيف المنهج التجريبي، إلى جانب المنهج النظري. ولم يكن فحسب أول من نبه إلى حقيقة المتغيرات، إلى جانب حقيقة الثوابت. بل كان أيضًا أول من نبه إلى ثنائية التركيب وزوجية الأشياء كافة بقوله تعالى: (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)[1].

٢ ـــ وهي زوجية قد يبدو فيها التناقض أو التضاد، فهناك الخير والشر، وهناك الحق والباطل، وهناك الموت والحياة، وهناك الجبر والاختيار، وهناك الرجل والمرأة، وهناك السعادة والشقاء، وهناك المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، وهناك الحاجات المادية والحاجات الروحية... الخ، من ثنائية التركيب وظاهرية التناقض، والتي لم يدرك عموم الفكر الوضعي حتى اليوم لا أسبابها ولا غاياتها، فكان هذا البؤس الغالب وذلك الضلال المبين.

لقد عمى الفكر الوضعي عن حكمة هذه الثنائية التي قد يبدو فيها التناقض، الذي هو سر الحياة ومحرك الوجود، حيث خلقها الله

(١) سورة الذاريات، الآية رقم ٤٩.

تعالى لتكون دوافع أو دينامو الحركة وأحداث التاريخ بقوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)[1]، وهي في الوقت ذاته أساس ابتلاء الإنسان واختباره بقوله تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)[2]، وحتى يستشعر الإنسان فضل الله عليه ونعمه إذ (بضدها تتميز الأشياء).

٣ ـ إن مشكلة الفكر الوضعي أنه يغفل سنة الله في ثنائية التركيب وزوجية الأشياء، فيجعل لكل شيء أو قيمة وجهًا واحداً، فهو إما ابيض وإما أسود. وهو بعبارة أخرى إما أن يكون الشيء ماديًا محسوسًا نرتبط به وإما أن يكون معنويًا غيبيًا نعرض عنه، وهو إما أن يكون ثابتًا دائمًا نتمسك به وإما أن يكون متغيرًا متطورًا نسايره، وهو إما عقل وتفكير نحتكم إليه وإما قلب وعاطفة نهدرها، وهو إما قدرى جبرى مستضعف وإما حر اختياري مسيطر، وهو إما وطنى إقليمي متعصب وإما قومي إنساني متفتح... الخ، من هذه الثنائية أو الزوجية التي يضل فيها الفكر الوضعي فيعمى عن أسرارها وحكمتها، ولايراها إلا متنافرة متصارعة، فيعجز عن جمعها والتوفيق بينها، ولا يتصور تزاوجها وتكاملها.

في حين أظهر الإسلام على نحو ما بينا، أن لكل شيء زوجين وأن لكل قيمة وجهين، وأن سر أو حكمة هذه الزوجية أو الثنائية التي يبدو فيها التعارض أو التناقض هو إيجاد دوافع الحركة واختبار

(١) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية رقم ٣٥.

الإنسان واستشعاره فضل الله، وإن سبيل الخلاص أو النجاة من ظاهر المتناقضات هو الدفع بالتي هي أحسن، وذلك بتحقيق تعاونها وتكاملها.

وسبحان الله! والله أكبر! والحمد لله! إذ كشف لنا الإسلام منذ البدء من أربعة عشر قرنًا حقائق الوجود، فالحياة دنيا وآخرة والدنيا هي مزرعة الآخرة، وإن احتياجات الإنسان مادية وروحية (تعبدية) ولاغنى للإشباع المادى دون الإشباع الروحي، وإن المصالح خاصة وعامة ولا قوام للمصلحة العامة بدون اعتبار المصلحة الخاصة، وإن التقدم مادى ومعنوى ولا قيمة لحضارة أو تقدم مادى بدون مثل وأخلاق، وإن التطور مرتبط بالثوابت و القيم وإلا فسد بسبب النزوات والأهواء الشخصية والمطامع البشرية، وإن الوطنيات تتكامل مع القوميات ومع الإخاء الإنساني.... الخ.

الفرع الرابع
جدلية التكامل لا الصراع

لقد أخطأت كافة المذاهب والنظم الوضعية، حين اعتبرت ثنائية التركيب أو زوجية الأشياء، وما تحتويه من تناقضات أو تضاد، هي للصراع والاقتتال، ومن ثم قامت حساباتها على أساس جحد أو نفي إحداها للأخرى. في حين أنها في حكم الإسلام، حسبما تقدم لها أسبابها وحكمتها، وهي كالسالب والموجب للتكامل والتزاوج.

وعليه فإن التدافع أو التعامل مع المتناقضات، يقوم في الجدلية الإسلامية على أساس **العلاقة التبادليـــة التكاملية**، وليس شأن الجدلية الوضعية التي تقوم على أساس **العلاقة المتنافرة الصراعية**. فهي والحال كذلك جدلية «إيجابية توفيقية» تمثل التكامل وصحة التعامل مع المتناقضات، وليست شأن الجدلية الوضعية «سلبية عدوانية» تمثل الصراع وفساد التعامل مع المتناقضات، وما ترتب على ذلك من آثار سيئة أفسدت حياة الإنسان وأضلتها.

٢ ــ والله تعالى إذ خلق من كل شيء زوجين، يبدو فيهما التناقض بقصد الحركة والابتلاء، لم يترك الإنسان في كدحه

واختباره بغير هدى أو نور، وإنما أرشده إلى المخرج والمنفذ بقوله تعالى: (إدفع بالتي هي أحسن)[1] وقوله تعالى: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)[2] وقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)[3] وقوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)[4] .....الخ.

وهذا هو الأسلوب الإسلامي في التعامل مع المتناقضات، أو قل هو جوهر أو مفتاح الجدلية الإسلامية، وذلك بالدفع بالتي هي أحسن في صورة التعاون والتكامل والاعتصام بحبل الله. فهي جدلية إحلال التكامل محل التناقض، والتعاون محل التعارض، وذلك بهدف تحقيق التوازن والاعتدال الذي هو سمة وخلاصة المنهج الإسلامي. وحتى إذا نشأت علاقة جديدة يبدو فيها التعارض أو التناقض، عولجت بالأسلوب ذاته أي بالتوفيق والمواءمة دفعاً بالتي هي أحسن لإعادة التوازن عند اختلاله.

٣ ــ ويمكننا القول بأن الخط الإسلامي إزاء متناقضات الحياة، هو خط الوسط بمعنى التوازن والاعتدال بقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)[5]، وهو مايردده الجميع عند كل أزمة وبعد كل معاناة بأن (خير الأمور أوسطها). ومن هنا كانت شعارات الإسلام بقوله تعالى: (لا تَظلمون ولا تُظلمون)[6]، وقول الرسول عليه

(١) سورة فصلت، الاية رقم ٣٤.
(٢) سورة الشمس، الآيتين رقمي ٨ و١٠.
(٣) سورة المائدة، الآية رقم ٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية رقم ١٠٣.
(٥) سورة البقرة، الآية رقم ١٤٣.
(٦) سورة البقرة الآية، رقم ٢٧٨.

الصلاة والسلام «لاضرر ولاضرار»[1]، وتحذيره عليه السلام «إياكم والغلو فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو»[2]، وقول علماء المسلمين (لا إفراط ولا تفريط) وتحذيرهم (لا تطرف ولا جمود).

ولعل هذه هي إحدى المشاركات الفعالة التي يقدمها الإسلام للعالم أجمع. فهو لاينكر المادة ولايجحد الغرائز والشهوات، بل هو يدعو إلى السيطرة على المادة والاغتناء ويحرص على إشباع الغرائز. ولكنه في الوقت ذاته يرفض أن تكون المادة هي الأساس والغاية كما يرفض إطلاق الغرائز والانغماس في الشهوات، ليضع بجانب المادة والشهوة العقيدة الإيمانية والالتزام بالأخلاق والمثل، و يزاوج بينهما بحيث لايهدر أحدهما على حساب الآخر بل يكمل كل منهما الآخر، ليقدم للعالم أجمع الصيغة أو النموذج الإسلامي في التعامل مع المتناقضات، وليصل إلى مبتغاه وهو التوازن والاعتدال في صورة حضارة الإنسان الذي يرتبط بالله و يدور في فلكه لاحضارة الأشياء التي ترتبط بالمادة وتدور في فلكها. ورحم الله المفكر الإسلامي الباكستاني محمد إقبال حين كان يتمثل حضارة الإسلام، بل قل يلخص جدليته، في قوله تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك)[3].

---

(١) متفق عليه (البخاري ومسلم).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق الشيخ شاكر، الجزء الخامس عشر، تحت رقم ٣٦٥٥.

(٣) سورة القصص، الآية رقم ٧٧.

الفرع الخامس
جدلية المتغيرات المحكومة بالثوابت الإلهية

١ ـ والمتغيرات في عالمنا الماضي أو الحاضر، ناميًا كان أم متقدمًا، سواء على المستوى الفردي أم المستوى الوطني أو حتى العالمي، هي في الواقع مدفوعة أو محكومة بأهواء الأفراد أو القادة. ومن هنا كان هذا الخلاف الصارخ بين مختلف الأفكار والمذاهب الوضعية، فهو خلاف تنافر وتعدد تضاد بحسب خلاف وتعدد الأمزجة والأهواء، بحيث لم تعد تعرف البشرية في عمرها الطويل باستثناء فترة الخلفاء الراشدين، أمنا ولا استقرار ولا توازنا. والحصيلة هو مانعانيه من إنفصام واضطراب وتمزق يتجرع الجميع مرارته.

٢ ـ بخلاف الأمر في الإسلام، فإن المتغيرات مدفوعة أو محكومة بالأصول الإلهية عقيدية إيمانية كانت أم اخلاقية تربوية أم سياسية واقتصادية واجتماعية... الخ، لاتخرج عنها أو تتجاوزها. وقد يكون هناك في مجال المعاملات خلاف في التطبيقات أو التفاصيل، ولكنه يظل خلاف تنوع لاخلاف تضاد، ولا يعدو ماعبر

عنه علماء أصول الفقه الإسلامي بأنه (خلاف زمان ومكان لاخلاف حجة و برهان).

وخلاصة القول أن المتغيرات في الجدلية الإسلامية لا تكون إعتباطًا أو على هوى الفرد أو الحاكم شأن الجدلية الوضعية، وإنما هي متغيرات محكومة بالثوابت الإلهية بحيث يكون التطور بمقتضى هذه الثوابت محسوبًا ومنضبطًا بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة ويجمع بين الدنيا والآخرة أو بين الحاجات المادية والحاجات الروحية... الخ، دون إهدار إحداهما لحساب الأخرى مما يحقق الأمن والاستقرار والتوازن و يعود على الإنسان بالرضا والسعادة.

٣ ـ أن التقدم المادي أو القوى المادية بغير القيم أو الضوابط الإلهية، سرعان ماتحطم نفسها، وهذه سنة الله في الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولعل هذه الصفة أو الخاصية الهامة التي تنفرد بها الجدلية الإسلامية دون سائر الجدليات الوضعية، وهي أن المتغيرات بمقتضاها تكون محكومة ومنضبطة بالثوابت الإلهية، إنما يفتح الباب أمام العالم ومختلف مجتمعاته للاستقرار والأمن والسلام الذي تتطلع إليه دون أمل، بسبب تخبطها أو توزعها بين مختلف المذاهب والنظم الوضعية بحسب أهواء قادتها المتضاربة وأطماعهم الشخصية ونزواتهم المتقلبة.

الفرع السادس
أزمة الفكر الوضعي وسبيل النجاة

١ ــ لا أحد ينكر أو ينازع، فيما عاناه ويعانيه عالمنا من اضطراب وقلق وتمزق وإحباط.. الخ، وكما هو معروف ومسلم به، أن السلوك ومقتضى الحال، هو ثمرة الفكر ونتيجة المفاهيم المسيطرة.

وعليه فإن بداية أي توجيه أو إصلاح، إنما يكون من خلال ترشيد الفكر وتصحيح المفاهيم. ومن هنا نبدأ، ومن هنا الحل وبداية الإصلاح الجاد وسبيل النجاة الحقيقية، على خلاف ماقد تتصوره أو تطرحه من حلول مختلف المذاهب والنظم الوضعية خاصة الماركسية منها[(١)]. وقد كشف لنا الإسلام عن هذه الحقيقة منذ ظهوره من أربعة عشر قرنا ونيف بقوله تعالى: (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[(٢)]، وقوله تعالى: (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[(٣)]، وقوله تعالى: (ولو أن أهل

---

(١) انظر كتابنا (الإسلام والمشكلة الاقتصادية)، ص٨٨ من الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، لناشره دار الوطن بالرياض.

(٢) سورة الرعد، الآية رقم ١١.

(٣) سورة الأنفال، الآية رقم ٥٣.

القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)[1].

٢ ــ ولقد رأينا فيما تقدم أن الإسلام يرفض المنهج المعرفي الغربي القائم على إسقاط كل ما لايدركه الحس. وبالتالي يرفض مفاهيمه في فصل الدين عن الدولة أو استبعاد الدين كلية من الحياة. كما يرفض تصوراته في الاكتفاء بالتقدم المادي أو التركيز على القوة أو الحضارة المادية، أو أن يكون الفرد نتيجة منفعلة وليست فاعلة للبيئة والأحداث، أو أن يكون عبدًا لشهواته أو مسيرًا بنزواته. ومن ثم ينبذ الإسلام الليبرالية الفوضوية، بقدر ما يرفض الشيوعية المستبدة، وسائر فلسفات البراجماتية الضالة أو الوجودية الزائغة... الخ. **وبعبارة مختصرة يرفض الإسلام سائر حضارات وفلسفات البعد الواحد التي تغفل حقيقة الحياة، وأنها كالعملة** الواحدة ذات وجهين أحدهما مادى والآخر روحي يكمل كلاهما الآخر ولا قوام أو غناء لأحدهما عن الآخر. **ومن ثم فإنه لاخلاص ولا نجاة للإنسانية إلا بالأخذ بالمشروع المعرفي الإسلامي ببعدية المتلازمين: التجريب والبرهان بالنسبة للمحسوسات والماديات، والوحى والدين بالنسبة للغيبيات والقيم.**

كما يرفض الإسلام المنهج المعرفي الغربي القائم على النسبية والمتغيرات في مجال العقيدة أو الأخلاق أو قيم الحياة من حرية

---

(١) سورة الأعراف، الآية رقم ٩٦.

وإخاء ومساواة وشورى وضمان حد الكفاية لكل فرد... الخ. فكلها في نظر الإسلام قيم ثابتة يلتزم بها كل مجتمع في كل زمان ومكان، بغض النظر عن تقدمه أو تخلفه وبغض النظر عن أدوات أو أشكال الإنتاج السائدة فيه. ولايقبل الإسلام التغيير إلا في المعاملات، وفي مجال فقط التفاصيل وكيفية إعمال مبادئه وأحكامه العامة في الإخاء والمساواة والعدالة والشورى... الخ، وذلك بحسب ظروف الزمان والمكان ودون أدنى خروج أو تجاوز لأحكامه وأصوله الإلهية الثابتة. **وهو بذلك يحل إشكالية التحكم والهوى الإنساني والمطامع البشرية الخاصة، ونزوات المذاهب الوضعية وتضارب نظمها، وما سببته لمجتمعاتها من اضطراب وإنحلال وضياع.**

كذلك يرفض الإسلام القول بصراع الأشياء، أو تنازع البقاء، أو عداء الطبقات، أو نفي أو جحد أحد طرفي العلاقة لحساب الآخر.. الخ من مذاهب الانشطارية الوضعية وأحادية الأشياء وفردية المفاهيم. ونراه على نحو ماسبق بيانه، ينفرد بوضع حلوله الإلهية في مختلف المجالات، ومن خلال زوجية الأشياء وثنائية الحاجات وتضارب المصالح، على أساس التعاون لا التنافر والتكامل لا الصراع، ودون إهدار أحد طرفي العلاقة كما تفعل مختلف المذاهب والنظم الوضعية، مما أدى على نحو مانرى إلى الإخلال بتوازن الحياة والإنسان، وما يستتبعه ذلك من خواء وتمزق وفساد يتجرع الجميع مرارته.

٣ ـ ولعل من عظمة الفكر الإسلامي، وباعتبار الإسلام خاتم الأديان، أنه الوحيد بين كل الأديان والنظم الوضعية كافة الذي يجيب بكل وضوح وإقناع، على ذلك السؤال الأزلي الذي تاهت فيه الأفهام وتعددت فيه المذاهب وضلت فيه المسالك، وهو لماذا خلقنا وإلى أين المصير؟ بقوله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقانكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون)[١]. وقوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[٢].

لقد جاء الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ونيف، وحدد مهمة ورسالة الإنسان بأنه مستخلف من الله في أرضه بقوله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة)[٣]، وقوله تعالى: (هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم)[٤]. والخلافة لغة هي النيابة والوكالة، وهي شرعاً حمل الأمانة والتكليف بإقامة حكم الله في الأرض. ومن ثم كان تكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات بقوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[٥]، كما كان تمكينه وهيمنته على كل ما استخلفه الله عليه أي لكل مافي الأرض وما عليها ومافي باطنها ومايحيط بها بقوله تعالى: (وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا منه)[٦].

(١) سورة المؤمنون، الآية رقم ١١٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية رقم ١٤٢.
(٣) سورة البقرة، الآية رقم ٣٠.
(٤) سورة الأنعام، الآية رقم ١٦٥.
(٥) سورة الإسراء، الآية رقم ٧٠.
(٦) سورة الجاثية، الآية رقم ١٣.

وخلافة الإنسان، شأن كل شيء وشأن كل تفويض أو تكليف لها وجهان: الوجه الأول هو العلاقة بين الإنسان وخالقه، وهي علاقة عبودية لله والالتزام بمنهجه بقوله نعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[1]. والوجه الثاني هو العلاقة بين الإنسان وكل ما استخلفه الله عليه، وهي علاقة سيادة على الأرض وتعميرها بقوله تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)[2] أي كلفكم بعمارتها. ووسيلة الإنسان لتحقيق العبودية هي الدين والإيمان، ووسيلته في تحقيق السيادة على الأرض هي العلم والعمل، فالإيمان والعلم هما مقومتا الخلافة، وهما في الإسلام متوافقان ومتكاملان وضروريان لتحقيق رسالة الإنسان وليس بينها شأن المذاهب الوضعية أي تعارض أو انفصام. ذلك أنه إذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله. فإنه يفقد سيادته على الأرض، إذ سيسقط حتما في عبوديات أخرى[3]. وبالمثل إذا

(١) سورة الذاريات، الآية رقم ٥٦.

(٢) سورة هود، الآية رقم ٦١.

(٣) عن شيخ الإسلام ابن تيمية إن الإنسان لايمكن إلا أن يكون عبدا، فهكذا خلقه الله تعالى فهو أمر جبرى لايملك تغييره أو تعديله، غير أنه عز وجل جعل عبودية الإنسان محل ابتلاء له فترك له حرية إختيار المعبود.
انظر فتاوى ابن تيمية المجلد الأول ص٣٦ والمجلد الرابع ص٢٤٩.
ومؤدي ذلك أنه إذا لم يجعل الإنسان عبوديته للحق تعالى وحده، وقع حتماً في عبوديته لغير الله سواء عبد الهوى أو الطاغوت أو الجاه أو المال أو المعشوقة أو الوثن.. الخ. من الأصنام أو الأهواء. وصدق الله العظيم (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) محمد/ ١٢، وقوله تعالى: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الأعراف/١٧٩.

لم يحقق سيادته على كل الأشياء والأحياء في الأرض، فإنه سيكون عبدًا لها، وبالتالي يستحيل عليه أن يكون عبدًا لله عز وجل. ورحم الله سيدنا عمر بن الخطاب حين كان يردد (نفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل).

ولا نشك لحظة أن حضارة الإسلام الأولى، ممثلة في حقيقة خلافة الإنسان في الأرض بلغت القمة حينما التزمت بشرطيها: العبودية لله وحده، والسيادة على الأرض. وأفلت هذه الحضارة وتخلف المسلمون بقدر ما بعدت حضارتهم أو بعدوا أفرادًا وجماعات ودولا عن هذين الأصلين. ولاشك أيضًا أن الحضارة الغربية اليوم، وإن حققت بمنهجها التجريبي الذي أخذته عن الحضارة الإسلامية، تقدمها المادى والسيادة في الأرض، إلا أنها قد ضلت وشقيت بانحرافها عن عبودية الله وتعاليمه[1].

نسأله تعالى الرشاد والتوفيق، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) انظر كتابنا (الإسلام والمشكلة الاقتصادية)، مرجع سابق ص١٠٨.

خاتمة

خاتمــــة

(إدفع بالتي هي أحسن)

١ ــ إن الجدلية كما سبق أن أوضحنا، هي فن أو أسلوب التعامل مع واقع متناقضات الحياة وحقيقة المتغيرات. ولقد كشف لنا الإسلام منذ ظهوره من أربعة عشر قرنا ونيف عن وجه المتناقضات أو ثنائية التركيب في كل شيء بقوله تعالى: **(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)**[١]، كما كشف لنا عن وجه المتغيرات ومختلف الأطروحات المستجدة بقوله تعالى: **(وتلك الأيام نداولها بين الناس)**[٢]. كما كشف لنا الإسلام عن سبب أو حكمة هذه المتناقضات والمتغيرات، وذلك باعتبارها تحديات الحياة ومحركها ودوافعها بقوله تعالى: **(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)**[٣]، وباعتبارها أيضاً أساس ابتلاء واختبار الإنسان لتحديد موقعه ودرجته في الآخرة بقوله تعالى: **(ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)**[٤] وقوله تعالى: **(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم)**[٥].

(١) سورة الذاريات، الآية رقم ٤٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية رقم ١٤٠.
(٣) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية رقم ٣٥.
(٥) سورة محمد، الآية رقم ٣١.

ولم يكتف الإسلام بالكشف عن واقع المتناقضات والمتغيرات، أو يقتصر على بيان حكمتها وأسبابها، وإنما كشف لنا أيضًا عن سبيل أو أسلوب التعامل معها بقوله تعالى: **(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن)**[1] وقوله تعالى: **(قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)**[2]. بل كشف لنا أيضًا عن غاية هذا الدفع وحدود هذه التزكية، وهي التوازن بهدف القرب من الله تعالى، بقوله سبحانه **(السماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان)**[3]، وقوله تعالى: **(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه)**[4].

٢ ـ والجدلية بمعنى فن أو أسلوب التعامل مع واقع متناقضات الحياة ومتغيراتها، إنما تكشف لنا عن (المشروع أو المنهج المعرفي) الذي تتبناه الإنسانية في مختلف مراحل حياتها. وبالتالي تدور أفكارها وأقوالها، كما تتحدد أفعالها وسلوكها، بل قل سعادتها أو شقاءها.

ولقد شقيت الإنسانية عبر تاريخها الطويل وحتى اليوم، بالجدلية الوضعية، سواء تلك التي سادت منذ عهد الإغريق على يد أرسطو وأبيقور وغيره، والقائمة على أساس النظريات والثوابت،

(١) سورة فصلت، الآية رقم ٣٤.
(٢) سورة الشمس، الآيتين رقمي ٩ و١٠.
(٣) سورة الرحمن، الآيات رقم ٧ و٨ و٩.
(٤) سورة الانشقاق، الآية رقم ٦.

وما استتبع ذلك من تجميد الفكر ومعارضة الكنيسة للتقدم العلمي. أو تلك التي تسود عالمنا المعاصر على يد بيكون وهيجل وماركس وغيره، والقائمة على أساس التجريب والمتغيرات، وما استتبع ذلك على نحو ما أظهرناه من قصر الحياة على المحسوسات وحصر الفكر في المتغيرات، وإخراج الدين والمثل من دائرة الحياة والمناداة بتغير المبادىء والقيم الأخلاقية بتغير الأزمنة والأمكنة، بل التأكيد بأن المثل والأخلاق ليست لها قيمة ذاتية وليست من الثوابت التي يعتد بها، فكان هذا الانفلات والضياع والفساد الذي يتجرع الجميع مرارته.

وعيب هذه (الجدلية الوضعية) أو هذا (المنهج المعرفي الوضعي)، سواء في صورته القديمة وهي (الجدلية اليونانية) أو (المشروع المعرفي الإغريقي)، أم في صورته الحديثة وهي (الجدلية الغربية) أو (المشروع المعرفي الغربي)، أنها (أحادية النظرة) و(انفصالية التوجه). ومن هنا كان أصل الداء، وكانت أزمة الفكر الوضعي في مختلف مراحله أو صوره. فإذا كانت (الجدلية اليونانية) قد أغفلت حقيقة (المتغيرات) وأهمية (التجريب)، فقد أغفلت (الجدلية الغربية) حقيقة (الثوابت) وأهمية التسليم (بالدين والوحى) في ما لايدركه العقل ولايصل إليه التجريب.

٣ ــ وعظمة الإسلام، أنه دون أن يطلع على (المشروع المعرفي الإغريقي)، وقبل أن ينشأ بقرون نقيضه وهو (المشروع المعرفي الغربي)، وما صاحب كلاً منها من عيوب ومفاسد، كان له منذ ظهوره منهجه المعرفي المتميز، والذي هو طوق النجاة وسبيل الخلاص

للإنسانية جمعاء. ذلك أن (المنهج المعرفي الإسلامي) يجمع بين الثبات والتطور، فهو إذ يؤكد الثبات في العقيدة والأصول والقيم، فإنه يسمح بالتغيير في التفاصيل والتطوير أو التعدد في النماذج والتطبيقات، ولكن دون أي تجاوز أو خروج عن مبادئه وأحكامه العامة. كما أنه يجمع بين الماديات والروحانيات، ذلك أنه إذ يدعو إلى الثروة والغنى والنظر في الكون والتجريب في المحسوسات وعدم التمسك إلا بالبرهان، نراه يدعو إلى الإيمان والتسليم بالغيبيات واليوم الآخر مما يعجز العقل عن إدراكه أو الإحاطة به. كما أنه يوفق بين مختلف المتناقضات، فنراه في كافة تطبيقاته يحرص على المصلحة العامة بقدر حرصه على المصلحة الخاصة، دون جحد أو نفي إحداها لحساب الأخرى، كما هو الشأن في مختلف المذاهب والنظم الوضعية[1]. هذا فضلاً عن أنه دون سائر المذاهب والنظم الوضعية، ينفرد بربط فكر الإنسان وسلوكه ارتباطًا وثيقًا بالله تعالى، ابتغاء وجهه سبحانه وخشيته، ويضع له رسالة سامية يسعد بتحقيقها ويصل تكريمه للإنسان بوصفه أنه مستخلف من الله في أرضه.

ومن هنا وعلى نحو ما أوضحناه، كان للإسلام جدليته الخاصة، وهي (جدلية التكامل لا الصراع)، والتي يعالج بمقتضاها إشكالية

---

(١) انظر تطبيقات ذلك في كتابنا (المذهب الاقتصادي في الإسلام)، طبعة أولى سنة ١٩٨١م لناشره شركة مكتبات عكاظ بالمملكة العربية السعودية، وطبعة ثانية سنة ١٩٨٦م لناشره الهيئة العامة للكتاب بجمهورية مصر العربية.

كبرى تاهت فيها العقول ومختلف النظم الوضعية، وهي إشكالية ثنائية التركيب أو زوجية الأشياء، وماقد يبدو فيها من تعارض أو تناقض. وهي أيضًا (جدلية المتغيرات المحكومة بالثوابت الإلهية)، والتي يعالج بمقتضاها إشكالية عظمى أخرى هي صميم أزمة الإنسان، وهي إشكالية التحكم والهوى ونزوات المذاهب الوضعية وتضارب أحكامها. وهو في النهاية إذ يربط الإنسان بالله تعالى، يحقق له أجمل وأغلى ما في الحياة وهو السكينة والطمأنية[1]، وصدق الله العظيم (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدأدوا إيمانًا مع إيمانهم)[2] وقوله تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[3].

إن الإسلام هو الوحيد بين كل الأديان وكافة المذاهب والنظم الوضعية الذي يجيب بكل وضوح وإقناع عن ذلك السؤال الأزلي الذي تعددت أو ضلت فيه الأفهام والمسالك، وهو لماذا وجدنا وإلى أين المصير. ولا أشك لحظة أن كافة ماقاسته البشرية منذ تاريخها الطويل، وما زالت تعانيه حتى اليوم ستظل تعانيه إلى أن تغير ما بنفسها، إنما يرجع إلى إغفالها أو نسيانها الحق تعالى، فحق عليها

(١) يبحث الناس جميعاً عن السعادة فلا يجدونها، ذلك أنهم يغفلون حقيقة السعادة وهي السكينة والطمأنينة إلى الله، حتى لقد نقل عن أحد الأئمة قوله بأنه (لو أدرك الملوك مانحن فيه من عزة بالله وطمأنينة، لنازعونا عليها بالسيف).

(٢) سورة الفتح، الآية رقم ٤.

(٣) سورة الرعد، الآية رقم ٢٨.

قوله سبحانه (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)[١] وقوله تعالى: (نسوا الله فنسيهم)[٢] وقوله تعالى: (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)[٣].

والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله.

(١) سورة الحشر، الآية رقم ٩.
(٢) سورة التوبة، الآية رقم ٦٧.
(٣) سورة طه، الآية رقم ١٢٤.

فهارس

فهرس الآيات القرآنية
بحسب ترتيب ورودها

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الأحاديث النبوية
بحسب ترتيب ورودها

فهرس المراجع المباشرة
بحسب ترتيب ورودها

١ ــ ذاتية السياسية الاقتصادية الإسلامية، للدكتور محمد شوقي الفنجري، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، لناشره دار ثقيف للنشر والتأليف بالرياض.

٢ ــ أعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام ابن القيم الجوزي، فصل (تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة).

٣ ــ علم أصول الفقه، لفضيلة الشيخ عبدالوهاب خلاف، الطبعة الثالثة ١٩٤٧م.

٤ ــ مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة المملكة العربية السعودية.

٥ ــ مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي، للدكتور محمد شوقي الفنجري، لناشره رابطة العالم الإسلامي ضمن سلسلة كتاب (دعوة الحق) عدد جمادى الثانية ١٤٠٤/ مارس ١٩٨٤م.

٦ ــ دراسة للدكتور محمد شوقي الفنجري، بمجلة الدارة السعودية عدد رجب ١٤٠٧هـ/ مارس ١٩٨٧م، بشأن كتاب

المستشار الفقيه/ عبدالحليم الجندي والمعنون (القرآن والمنهج العلمي المعاصر)، طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٨٦م.

٧ ـ **الإسلام والمشكلة الاقتصادية**، للدكتور محمد شوقي الفنجري، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، لناشره دار الوطن بالرياض.

٨ ـ **المذهب الاقتصادي في الإسلام**، للدكتور محمد شوقي الفنجري، الطبعة الثانية ١٩٨٦م لناشره الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة